ظهور المسيحية وموقف الإمبراطورية الرومانية منها

المعتقدات الدينية وتطورها عند الرومان:

انتشرت الوثنية بين الرومان، والتي لم يكن لها تأثير في نفوس معتقياها، بالرغم من تقديم القرابين لهذه الإلهة، وكان مبتغاهم في ذلك تحقيق مصالحهم الدنيوية لا غير، حتى أن الرموز الوثنية الأخرى التي وجدت في أنحاء الإمبراطورية مثل غاليا وبريطانيا، كانت هي الأخرى رموزا شكلية لا أثر ديني لها في نفوس معتقياها. وفي هذا الفراغ الروحي توجه سكان الإمبراطورية إلى معتقدات أجنبية لعلمهم يجدون مرادهم في ذلك، وخاصة المستوردة من الشرق مثل عبادة سيبيل Cybele من آسيا الصغرى، وميثراس Mithras من بلاد فارس، وايزيس من مصر⁽¹⁾، بل توجهت العبادة الرومانية إلى تقديس الأباطرة وعبادتهم إلى جانب عبادة الآلهة مثل جوبيتر ويونو ومينرفا، بل هناك من اعتقد بأفكار الرواقيين، وما تتطوي عليه من أخلاق سامية، وإيمان بكل الآلهة⁽²⁾، إلى أن ظهرت المسيحية وانتشرت بين أبناء الإمبراطورية وتزايد معتقوها⁽³⁾.

لقد ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ببيت لحم جنوب القدس، في عهد الإمبراطور أغسطس Augustus (27ق.م-14م)⁽⁴⁾، والحقيقة لا علاقة بين الديانة الجديدة والديانات الأخرى، لأن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فاقت كل القصص الديني في تلك الفترة، إذ أن تعاليمه مستقاة من الكتاب المقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به العامة والخاصة، عكس الفلسفة اليونانية التي لا يمكن أن يفهمها إلا المثقفون ذوي الفكر. فالمسيحية دينا سماويا لم تختص بفئة معينة أو فريقا دون الآخر، وبذلك كان سر انتشارها وتفوقها على العقائد المعاصرة لها⁽⁵⁾. هذه الديانة السماوية الجديدة التي أسقطت الفوارق بين العبيد

والأحرار والأغنياء والفقراء، بل بشرتهم بالخلاص من دولة الأغلال والطغيان⁽⁶⁾. ويرجع الفضل في العصر الأول للمسيحية إلى القديس بولس Saint Paul، حيث قام هذا الأخير بتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى، وذلك بوضع قواعد اللاهوت⁽⁷⁾، وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والآخرة، كالموت والبعث والحساب والخلود، بالإضافة إلى جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية. وأخذت المسيحية في الانتشار شيئاً فشيئاً، ولم يكد ينتهي القرن الأول، إلا وأصبحت كل ولاية رومانية مطلة على البحر الأبيض المتوسط تضم مجموعة مسيحية، بل في روما نفسها في وقت مبكر من سنة 64م، مما جعل الإمبراطور نيرون (54-68م) ينتقم من المسيحيين ويضطهدهم⁽⁸⁾.

-عوامل انتشار المسيحية في مختلف أرجاء الإمبراطورية:

كانت أوضاع الإمبراطورية حينها أكبر مساعد على انتشار المسيحية، ويمكن حصر هذه العوامل في عدة نقاط منها:

- وجود شبكة واسعة من الطرق الضخمة التي ربطت بين أرجاء الإمبراطورية.
- الأمن والسلام اللذان سادا في ربوع الإمبراطورية.
- نشاط حركة التبادل التجاري بين مختلف الولايات الرومانية.
- سيادة اللغة اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب، مما جعل من السهل انتقال الأفكار والمعتقدات بين مختلف أرجاء الإمبراطورية⁽⁹⁾.

لقد كان دعاة المسيحية الأوائل يحثون أتباعهم على الزهد في الدنيا، ومنهم ترتوليان Tertullian (ولد حوالي سنة 150م)، الذي كان يحث المسيحيين على الابتعاد عن الدنيا،

ويرفض التجنيد في صفوف الجيش الروماني، اعتقاداً منه أنها إمبراطورية آثمة، كما جهر بعض رجال الجيش المسيحيين بالعصيان والامتناع عن تأدية خدمتهم العسكرية⁽¹⁰⁾.

-رد فعل الأباطرة تجاه معتنقي المسيحية:

لقد كان أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من البؤساء والفقراء والبسطاء في المجتمع، لذا لم يعرهم الحكام أي اهتمام واعتبروهم مثل سابقهم من اليهود، ولكن بعدما تبين أن هؤلاء كانوا رافضين لعبادة آلهة الرومان، هناك ساور الشك الأباطرة في أن هذه الفئة من ورائها أمر عجب⁽¹¹⁾. وكان رد فعلهم قاسياً تجاه هذه المجموعات والانتقام منهم، وتقديم الكثير منهم كغذاء للأسود الجائعة، وذلك لم يزد الجماعات المسيحية، إلا صلابته وتفاخراً بالشهادة. وبالرغم من المبالغة في عدد القتلى، إلا أن هناك اضطهاداً شهده المسيحيون منذ القرن الأول في عهد نيرون إلى بداية القرن الرابع في عهد حكم دقلديانوس⁽¹²⁾.

وبالرغم من الاضطهاد المسلط على رقاب المسيحيين طيلة عقود من الزمن، لم يمنعهم من ممارسة عقيدتهم، لأن روح الشجاعة والصبر والإيمان لشهداء المسيحية زادهم إعجاباً وإقبالاً على المسيحية. وبهذا أصبحت الديانة الجديدة أمراً واقعا فرض نفسه على الأباطرة والقبول به، وهذا ما أدى بالإمبراطور قسطنطين الاعتراف بالمسيحية في مرسوم ميلان سنة 313م كأحدى الشرائع المصرح بها داخل الإمبراطورية، وتمتع أصحابها بحقوقهم مثلما لأصحاب الشرائع الأخرى⁽¹³⁾. واختلف كثير من المؤرخين حول قسطنطين وإصداره مرسوم ميلان، هل كان ذلك من عقيدة صادقة وإيمان مسيحي، أو أنه مجرد إجراء سياسي لتحقيق مآرب دنيوية خاصة؟⁽¹⁴⁾.

ومهما اختلفت الآراء بين مؤيد ومعارض، فإن إجراءه الذي قام به تجاه المسيحيين، لا يخلو من سياسة حكيمة لصالح الإمبراطورية، كما لا يطرح الشك في عقيدته المسيحية⁽¹⁵⁾، خاصة وأنه رضي بالتعميد وهو على فراش الموت سنة 337م⁽¹⁶⁾.

- ظهور الكنيسة وتنظيمها:

لم يكن لمعتقي المسيحية الأوائل كنائس يؤدون فيها عبادتهم، خوفا من بطش الرومان، إذ أنهم كانوا "يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون طقوسهم الدينية وينشدون أدعيتهم"⁽¹⁷⁾، غير أنه على ما يبدو أصبحت لهم كنائس وتوسعوا في بنائها بعد مرسوم ميلان سنة 313م، الذي من خلاله تسامح الإمبراطور قسطنطين معهم لممارسة طقوسهم الدينية⁽¹⁸⁾. كما أن الكنيسة في المعتقد المسيحي أولويتها لا تختلف عن المعتقد نفسه، إذ أنهم يستندون -حسب ما يعتقدون- إلى قول المسيح عليه السلام للقديس بطرس "وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"⁽¹⁹⁾. على رأسها البابا الذي يستمد سيادته من خلفته لبطرس في كرسيه الأسقفي بروما⁽²⁰⁾، ويأتي بعده في الرتبة الكاردينال⁽²¹⁾. هذا بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، أما في الشرق فنجد البطريرك على رأس الكنيسة الأرثوذكسية⁽²²⁾، ومن جهة تنظيم الكنيسة الغربية فقد انقسمت إلى أسقفيات، يديرها الأساقفة وبدورها تم تقسيم الأسقفيات إلى أبرشيات يشرف على إدارتها القساوسة⁽²³⁾.

وإذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الكنيسة والدولة في الشرق نجد أن الأباطرة فرضوا سلطانهم على الكنيسة، وأصبح ما يعرف بالقيصرية البابوية، أي أن الإمبراطور هو السيد الحقيقي

لكل من الكنيسة والدولة. وأما في الغرب اللاتيني فقد بدأت الكنيسة تفرض سيطرتها، منذ القرن الخامس الميلادي لأن الإمبراطورية بدأت تتداعى خاصة مع زحف القبائل الجرمانية، وبدأت الكنيسة تفرض وجودها واستقلالها عن الدولة شيئاً فشيئاً، وبهذا لم تندمج الكنيسة والدولة في العصور الوسطى إطلاقاً، وظل بينهما صراع محتدم⁽²⁴⁾.